تأثير التربية الأسرية على النشئ

دكتور/ طلعت منصور

أستاذ ورئيس قسم الصحة النفسية بكلية التربية

ومدير مركز الإرشاد النفسي – جامعة عين شمس، القاهرة

مقدمة :

التربية الأسرية قضية كل عصر؛ فالتربية في الأسرة أو دور الأسرة كوكالة رئيسة من وكالات التنشئة الاجتماعية للنشء، هي قضية تتجدد مع تغيرات الموجات الحضارية، وفي استجابة لتحديات عملية الحضارية في تاريخ الإنسانية، بقدر ما تعكس الأسرة هذا الواقع وتكون قوة مؤثرة فيه.

فالأسرة – بحكم الفطرة والخبرة – تربي أبناءها تواصلاً مع تعاقب الأجيال، ولكن فهمنا لفاعلية دور الأسرة في تربية النشئ في إطار التغيرات والنقلات الحضارية التي تعيشها الأسرة في هذا العصر يحتاج إلى مراجعة وتقييم، وإلى تعلم وإعادة تعلم لكل الأطراف والقوى المؤثرة في سياسات واستراتيجيات وأساليب تربية النشئ، وفي شمولها أيضاً للمدرسة والأقران والمؤسسات الدينية والثقافية في المجتمع.

فمع استقبال القرن الجديد والألفية الجديدة، صارت تتشكل وبسرعة فائقة لم يشهدها إيقاع الحضارة الإنسانية من قبل – ملامح عصر جديد علينا أن نعد ناشئتنا ليكونوا قوى إيجابية وفعالة فيه، وأن نحصنهم كي لا يواجهون "بصدمة حضارية" أو يتخذون موقفاً سلبياً أو حتى رافضاً لحضارة العصر، أو يتراجعون إلى ظواهر شتى من الاغتراب الثقافي. علينا إذن نهيئ النشئ لاستيعاب حضارة العصر والتمكن من اقتداراتها، وعلى أساس من "انتقائية مبدعة" لما تحمله تلك الحضارة من قوى للتقدم والرفاهة، وفي تناسق مع هويتنا الثقافية وما يثريها من قيم دينية وروحية نتفرد بها وسط الثقافة العالمية.

إن الأسرة العربية لتتطلع إزاء ثقافة هذا العصر – عصر مجتمع المعرفة ومجتمع التعلم، وعصر ثقافة التنمية، وأيضاً عصر العولمة والكوكبية – إلى غايات وطموحات

ترنو إليها ولتعيش في نفس الوقت حالة دينامية من المتناقضات بين الطموحات والتحديات، مع الرجاء في تجاوز تلك المتناقضات وتحمل غموضها وحل مفارقاتها من خلال صيغة، تتدرب عليها الأسرة وتتقن مهاراتها، يمكن بها حسن الاختيار من بين هذه المتناقضات على أساس من الإيجابية والنفعية وحسن توظيفها لخير وتقدم الأسرة، وفي توافق لا تنافر مع ذاتنا الثقافية.

قسمات مشتركة في الشأن الأسري والأبناء بين اليهودية والمسيحية والإسلام:

إن المتأمل والباحث في جوهر الدين وروحه يقف أمام "ينبوعية" من القيم الروحية والمثل العليا التى يتسامى بها الإنسان عقلاً وروحاً، ومعرفة وعملاً، وجوداً وجودة..

هذه الينبوعية" بروافدها الثلاث – اليهودية والمسيحية والإسلام – هي في صيرورة أبدية من التدفق بكل مقومات الحياة وفي وجود كريم مستحق أن يعاش – أسرة وأفراداً ومجتمعاً..

في هذا السياق تتعاظم قسمات مشتركة بين أديانا الثلاثة عن تأثير التربية الأسرية على النشئ، نشير استلهاماً منها إلى بعض الآيات التي تحمل معان ودلالات فيما نحن بسبيله:

.. من العهد القديم

"إمرأتك مثل كرمة مثمرة في جوانب بيتك، بنوك مثل غروس الزيتون حول مائدتك. هكذا يبارك الرجل المتَّقي الرب"

(مزمور 128: 3، 4)

"أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض"

(خروج 20: 12)

.. ومن العهد الجديد

"ليكن الزواج مكرماً عند كل واحد"

(عبرانيين 13: 4)

"أيها الأولاد أطيعوا والديكم في الرب لأن هذا حق.. وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم بل ربّوهم بتأديب الرب وإنذاره"

(أفسس 6: 1-4)

.. ومن القرآن الكريم

"ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة"

(الروم: 21)

"علموا أولادكم وأهليكم الخير وأدبوهم"

(حديث شريف: رواه عبد الرازق وسعيد بن منصور)

وتلك قسمات مشتركة تكفل – وفي العمل بها – ضمانات تحقيق الأسرة لرسالتها في حسن تنشئة الأبناء وترشيد أسلوب حياتها في العمل والتعامل مع الأبناء.. ومن هذه القسمات والضمانات تبرز عدة مبادئ كموجهات في هذا الشأن، منها :

- التقوى كسياج لحماية الأسرة وإثراء أسلوب حياتها.
- قدسية الزواج والعلاقة بين الزوجين كأساس لتماسك الأسرة وفاعليتها، وإشاعة مناخ من السكينة في الأسرة.
- تأسيس العلاقات الأسرية على المودة والرحمة، والحب والإيثار والمساندة.
- التربية القائمة على التعلم والتأديب والطاعة.
- التربية ذات التوجه الإيجابي : تعليم الخير، إكرام الوالدين، والإثمار والإعمار....

وإزاء هذه القسمات المشتركة تحدونا مقولة "أبو حاد الغزالى" :

"أن نعمل بما نعلم لينكشف لنا ما لا نعلم"

أساليب التربية الأسرية
وتأثيرها على نمو الشخصية والكفاءة الاجتماعية لدى النشئ

تعني التربية الأسرية (Family education / Family child rearing) – كما تحددها "الرابطة الأمريكية لعلم النفس" (APA) – النمط العام المميز للأسرة في أساليب تنشئتها للأبناء؛ وتتباين أساليب التربية الأسرية في مجالات رئيسة وهي: أساليب النظام والضبط، والتعبير عن المشاعر والوجدانات، ودرجة السماحة في الأسرة (American Psychological Association, 2009, P. 78).

وترتبط التربية الأسرية لذلك إرتباطاً عضوياً وثيقاً بمهام الأسرة ووظائفها، كما يحددها الثقاة في هذا الميدان فيما يلي: (Brown, 1978)

(1) إرساء قواعد رئيسة من الالتزام والتكرس والمسئولية لأعضاء الأسرة؛

(2) توفير الدفء والرعاية لكل أعضاء الأسرة؛

(3) توفير الفرص والخبرات المواتية للنمو السوي للأبناء وتعزيز نمو الفردية لديهم؛

(4) تيسير نمو الاقتدار الشخصي والاجتماعي والتعليمي والمهني لأعضاء الأسرة.

تحدد "الرابطة الأمريكية لعلم النفس" (APA) عدة أنماط لأساليب الوالدية كما يلي:

- **التربية التسلطية Authoritarian**، وفيها يمارس الوالدان ضغطاً على الأبناء لإجبارهم على الطاعة، ولا يؤكدون على التعاون والمشاركة، ولا يأبهون بالحوار والإصغاء والفهم المتبادل؛ ويستخدمون أشكالاً قوية أو صارمة للعقاب.

ففي الممارسات الوالدية التسلطية يباشر الوالدان تحكماص زائداص في الطفل، ويفرضان عليه بجمود قواعد ومعايير تقييدية لسلوكه، ويتيحان له قدراً ضئيلاً من الاستقلالية والحرية؛ ويقدر الآباء الطاعة دونما تساؤل أو تفاهم، ويعاقبونهم بشدة

أو بقسوة في حالة الخروج على المعايير والتوقعات الوالدية. وتبين بعض الدراسات أن هذا الأسلوب التسلطي الضاغط في تربية النشئ لا يساعد على نضوج شخصيتهم: فمن المحتمل أن يترتب على هذا الأسلوب أن يصير الطفل خجولاً، خانعاً، حساساً؛ وقد تتملكه مشاعر عدم الكفاءة، والتردد وعدم الحسم، والنزعة إلى الكبت. ومثل هذا الفرد قد تنمو عنده "عقدة أنه شخص يمكن خداعه ويعجز عن مقاومة الإغراء" Sucker complex (Becker, 1964; Martin, 1993). فالأسلوب التسلطي وفرض القيود الزائدة على الطفل يميل إلى أن يخلق فيه سلوكاً قوامه الخوف والاعتماد والخنوع، وعدواناً مكبوتاً، وأفولاً لإعمال الذهن في المواقف المختلفة، كما أن الاتجاه الوالدي التسلطي في تنشئة الأبناء يحدد إطاراً ومعايير أخلاقية معينة للسلوك يجري فرضها على الطفل "من الخارج"، ولا يسمح له بتجريبها وممارستها وتمثلها حتى تنبثق أحكامه وتقديراته للمواقف "من داخل نفسه" وليس مجرد مسايرة للآخرين أو خوفاً منهم.

- **التربية السُلْطَوية Authoritative**، في هذا النمط يلجأ الوالدان إلى تشجيع الاستقلالية عند الأبناء، ولكنهما يفرضان حدوداً معينة على السلوك.

في هذا النمط من التربية الأسرية يحرص الوالدان على توجيه أنشطة أبنائهم بطريقة عقلانية، مع الاهتمام بالأمور المتعلقة بتلك الأنشطة أكثر من اهتمامهم بخوف الأطفال من العقاب أو من فقدان حب الوالدين لهم. ويباشر الوالدان ضبطاً حازماً عند الضرورة، ولكنهم يفسرون لأبنائهم الأسباب التي تدعوهم إلى اتخاذ مواقفهم، ويشجعون في ذلك الأخذ والعطاء في تفاعلهم مع الأبناء. وبينما يبدى الوالدان ثقة في قدرتهم على توجيه أبنائهم، فإنهم يبدون أيضاً احترامهم لاهتمامات وآراء أبنائهم، ويقدرون تفرد شخصياتهم. ويبدي هؤلاء الآباء حباً واحتراماً واهتماماً فيما يتخذه الأبناء من قرارات مستقلة، ولكنهم في نفس الوقت يبدون حزماً في الحفاظ على المعايير وقد يفرضون عقاباً محدوداً على الأبناء. إن هذا النمط من التربية الأسرية يجمع هكذا بين الضبط والتشجيع.

ومن الواضح أن الأبناء الذين ينشأون في تلك البيئة الأسرية يشعرون بالأمان والثقة، ويدركون أنهم محبوبون من أسرتهم، ويعون ما هو مطلوب منهم. ويتصف هؤلاء الأبناء بأنهم أكثر اعتماداً على أنفسهم، وتوجيهاً لأنفسهم، وتحكماً في سلوكهم واستجاباتهم، كما يتصفون بالتوافق والرضا عن الذات، وتوكيد الذات.

- **التربية السمحة Permissive**، ويتميز هذا النمط بأن الوالدين يتصفان بالتقبل والإيجابية والحزم في تفاعلهما مع الأبناء، ولا يثقلان الأبناء بمطالب كثيرة، وتجنب فرض ضوابط صارمة على الأبناء.

في هذا النمط من التربية الأسرية يأتى الوالدان بمطالب قليلة، ويسمحون لأبنائهم بتنظيم أنشطتهم بقدر الإمكان. ويعتبر الآباء والأمهات أنفسهم مصادر لأبنائهم، وليس كنماذج مثالية لهم أو حاملين للمعايير التي ينبغي أن يراعيها الأبناء. ويحرصون على أن يشرحوا لأبنائهم الأسباب التي تكمن وراء القواعد الأسرية القليلة التي توجد في الأسرة، ويتشاورون معهم بشأن سياسة اتخاذ القرارات، ومن الصعب أن يلجأوا إلى توقيع العقاب عليهم. وقد ينجم عن هذا النمط من التربية الأسرية نقص في الخبرات المواتية لنمو الشخصية، ولاستكشاف الذات وتحقيق الذات؛ وقد يبدي هؤلاء الأبناء لذلك نقصاً في نضجهم، كما يكونون أقل ضبطاً وتوجيهاً لذواتهم.

- **التربية الرافضة – المُهمِلة Rejecting-neglecting**، وفيها يكون الوالدان غير مساندين للأبناء، وغير مقدرين لحاجاتهم ولظروفهم إلى حد من اللامبالاة وعدم تحمل المسؤولية، بل وغياب الدور الوالدي غالباً في حياة الأبناء؛ وفي هذا النمط يخفق الوالدان في مراقبة وتقييم سلوك الطفل ونموه، وفي توجيه سلوكه وتحديده وفقاً لقواعد السلوك المرعية؛ كما أن الوالدين في هذا النمط يكونان أكثر اهتماماً وانشغالاً بحاجاتهم من حاجات أبنائهم (American Psychological Asociation "APA", 2009, P. 355)

ينطوي الرفض الوالدي Parental rejection على الإنكار المستمر لتقديم الاستحسان والمساندة للطفل، أو إبداء العطف أو الرعاية من قبل الوالدين أو

أحدهما؛ وقد يكون الإهمال في بعض الحالات متوارياً خلف غطاء من التدليل الزائد أو الحماية الزائدة. والمحصلة المتوقعة لهذا الأسلوب غير السليم في رعاية الأبناء وتنشئتهم هي تدني تقدير الذات والثقة بالنفس عند الطفل، ومفهوم سالب عن الذات، والعجز عن تكوين روابط وجدانية مع الآخرين، وسورات الغضب، والعدائية المعممة، وتطور بعض الاضطرابات الانفعالية والنفسجسمية عند الأطفال. لذا ينطوي الرفض أو النبذ الوالدي على الإساءة للأطفال (APA, 2009, P. 355).

أما **الإهمال Neglect**، فهو شكل من أشكال الإساءة للأطفال، وحيث يخفق الوالدان في توفير الحاجات الأساسية للأبناء وتلبية مطالب نموهم. وقد يكون الإهمال انفعالياً مثل النبذ أو اللامبالاة، أو مادياً مثل عدم إشباع الحاجات الجسمية، أو من حيث عدم توفير الخدمات اللازمة للطفل مثل الحرمان من التعليم أو إهمال صحة الطفل (APA, 2009, P. 319).

- وقد يشيع في بعض الأسر أساليب في تربية النشئ لا يدرك الوالدان إزاءها ما تنطوي عليه من تأثيرات سالبة أو غير مواتية في نمو شخصية الأبناء – وتلك هي الأساليب التي تعتمد على **الحماية الزائدة والتدليل للأبناء:**

إن **أسلوب الحماية الوالدية الزائدة** للأبناء يفرض نوعاً من "الوصاية" على الطفل، حيث يقوم الوالدان نيابة عنه بالمهام والواجبات والمسئوليات التي يستطيع أن يقوم بها، والتي يجب تدريبه عليها وممارستها حتى ينمو بشخصية استقلالية. هذا الأسلوب غير السوي في تنشئة الأبناء يأخذ عدة أشكال، من أبرزها:

(أ) ارتباط الوالدين الزائد بالطفل مثل ملاطفته كثيراً أو النوم معه، (ب) إطالة فترة الرعاية الطفلية، مثل تلبية حاجاته من الطعام والنظافة والملبس والنظام رغم أن الطفل يكون في مقدوره أن يفعل ذلك بنفسه، (ج) إعاقة نمو الاعتماد على النفس، وذلك عن طريق الاشراف الزائد على أنشطة الطفل، والدفاع عنه، وحل مشكلاته، (د) نقص الضبط الوالدي أو الافراط فيه، إما بالتساهل الزائد أو الإصرار على الطاعة الزائدة.

ومن النتائج التي تترتب على أسلوب الحماية الوالدية الزائدة في تنشئة الأبناء – تطور الاعتمادية الزائدة من جانب الطفل، بل ومن المحتمل أن يشعر بعدم الأمان وبالخوف من أن ينزع إلى الاستقلال. هذا الطفل قد يعتبر والديه طغاة أكثر من أن يعتبرهم حماة ومعاونين له؛ لذا قد يتمرد ضد سلطتهما في نفس الوقت الذي فيه يعتمد عليهما طلباً للحب والأمان.

ويتسم الأطفال الذين تربوا على الحماية الوالدية الزائدة غالباً بخصائص شخصية مميزة مثل سهولة الاستثارة وعدم الاستقرار ونقص التركيز. كذلك قد يتسمون بانخفاض في مستوى قوة الأنا والطموح وتحمل الاحباط، وبكثرة ردود الأفعال الانسحابية، وبالعزوف عن تحمل المسئولية، وبنقص الضبط الانفعالي. وهم أكثر تأثراً بالجماعة التي يعتمدون عليها. وغالباً ما يصيرون جامدين في آرائهم الخاصة بالصواب والخطأ. وقد يتصفون بنقص النضج الاجتماعي والنضج الخلقي، وبالسعي إلى جذب انتباه الآخرين، وبالأنانية، وبالنزعة إلى إثارة المتاعب. هذا النمط من النشئ ينقصهم الاعتماد على النفس والقدرة على مواجهة مشكلاتهم بطريقة واقعية، ويشعرون غالباً بالسلبية وبنقص الكفاءة وبالتهديد إزاء العالم المشوب بالمخاطر من حولهم (Jenkins, 1968; APA, 2009, P. 349).

- أما **التدليل**، الذي يرتبط غالباً بالحماية الزائدة، فيقوم على سياسة (ترك الحبل على الغارب) للطفل كي يتصرف على النحو الذي يبغيه ويحقق رغباته بالطريقة التي تروق له، دون توجيه من الوالدين له خوفاً من الانتقاص من حريته وبالتالي الحد من إشباع حاجاته. فهو أسلوب يقوم على اعتقاد من الوالدين بأن الطريقة المثلى لتربية الطفل ولنموه هي أن يوفرا له حرية مطلقة. فالوالدان يعتقدان بأن "أحسن طريقة لتربية الطفل هي أن نتركه حراً يعمل كل ما يحلو له"، و"أن نحقق له جميع رغباته"، و"أنه مهما أخطأ فينبغي ألا يتحمل مسئولية خطأه لأنه طفل على أية حال".

إن الوالدين بهذا الأسلوب يفتحان الباب أمام نزوات الطفل وبالتالي يخفقان في تعليمه المعايير المرغوبة للسلوك أو إثابته. بل قد يستسلم الوالدان لهذا الإبن الذي

لم يلق كفاً لسلوكه غير المرغوب في بعض الأحيان. ويقرر هؤلاء الآباء أن أطفالهم يمثلون في الغالب مصدر إزعاج للأسرة – فهم كثيرو الضوضاء والفوضى، ولا يخضعون لنظام، ويعبثون بكل ما في المنزل وقد يتلفونه، ويبدون مقاومة حينما يحاول الوالدان أن يفرضا أية حدود على سلوكهم أو لعبهم. هؤلاء الأطفال يصعب هكذا "ضبط" سلوكهم. لذا كثيراً ما يَخْبُر الوالدان إحباطات شديدة بشأن تربيتهما لأطفالهما، فيدخلان في صراعات مع أبنائهما إذا حاولا فرض أساليب جديدة تقوم على الضبط السلوكي لم يعتادوها مع والديهما من قبل. وغالباً ما يشكو الوالدان من "طغيان" أبنائهما ومن سلوكهما الاستبدادي. لهذه الأسباب يواجه الأطفال المدللون صعوبات في توافقهم الاجتماعي؛ فهم ينزعون إلى الأنانية، والإلحاح، والافتراء، ويتوقعون الاهتمام المستمر من الآخرين؛ ويستجيبون لمحاولات الوقوف في وجه رغباتهم بنوع من عدم الصبر أو التمرد والثورة؛ ولذا غالباً ما يصدمون بالمجتمع ويتمردون عليه لأنهم يلقون صعوبة في تقبل ما قد يفرضه من مطالب تتعارض مع رغباتهم وتوقعاتهم (Harskamp, 1996).

تتضح مقومات التربية الأسرية السليمة في فاعلية الوالدين وتمكنهما من مهارات الوالدية الفاعلة، ومن إدارة عملية الوالدية. ويتعاظم مردود هذه الأساليب الوالدية في تربية النشئ في النمو السوي لشخصية الطفل في الجوانب المختلفة من بنية الشخصية وفي حسن توظيف إمكاناتها بمعطيات ومعايير الصحة النفسية الإيجابية. فهذه الأساليب تنطوي على علاقة تفاعلية، دينامية ومتنامية، بين الوالدين والأبناء، وفي سياق بيئة أسرية صحة يشيع فيها مناخ نفسي اجتماعي قوامه قيم روحية وجدانية من الحب والفهم والاحترام والمؤازرة والإيثار والتشجيع، لتكون الأسرة هكذا بيئة مواتية لنمو النشئ وتنميتهم. تتميز بذلك فاعلية الأسرة في تربية النشئ بعدة مقومات، من أبرزها :

(1) التوافق الزواجي أو السعادة الزوجية.

(2) التطابق أو الاتفاق بين الوالدين بشأن تربية الأبناء.

(3) إدارة الخلافات أو الصراعات في الأسرة بالحكمة والوعي.

(4) التعامل مع ضغوط الحياة وضغوط الوالدية بأساليب توافقية.

(5) التركيز على أساليب التعزيز الإيجابي للأبناء من الاستحسان والتشجيع والمكافأة.

(6) مهارات التواصل اللفظي وغير اللفظي، والاهتمام بالحوار، والإنصات الفعال.

(7) الاهتمام بآراء الأبناء وأفكارهم، والمشاركة في الحديث وتشجيع إبداء الرأي، والاهتمام بأسئلتهم واستفساراتهم.

(8) تشجيع الاستقلالية والاعتماد على النفس، تأكيداً على الثقة بأنفسهم وتقدير ذاتهم.

(9) إتاحة الفرصة للأبناء للتعبير عن الذات، ومساعدتهم على حسن الاختيار بين البدائل، وعلى عمليات اتخاذ القرار.

(10) إحساس الأبناء بالثقة والأمان في الأسرة، فيبادلون والديهم وإخوتهم ثقة بثقة، ويلجأون إليهم طلباً للنصيحة والمشورة والعون بشأن ما قد يعن لهم من صعوبات أو مشكلات.

هذا النموذج من التربية الأسرية الرشيدة والفعالة هو تقريباً نفس النموذج المواتى لتنمية الإبداع عند الأطفال، وكما يتضح ذلك مما يلي:

تأثير التربية الأسرية على تنمية الإبداع عند النشئ:

لقد كان تأثير الأسرة والتربية الأسرية على نمو الإبداع وتنميته عند الأطفال موضوعاً لبحوث كثيرة، وحيث يتأكد الدور الحاسم والفعال للأسرة. وثمة دراسة ذات مغزى في هذا الشأن تستعرض تقارير نتائج **إحدى وستون بحثاً** في ذات الموضوع، لتستخلص منها عوامل عامة مشتركة عن دور الأسرة في تنمية الإبداع عند الأطفال – وذلك ما يمثل أيضاً مُوَجِّهات للوالدين من أجل تنمية مستويات عالية للإبداع عند ابنائهم، فيما يلي: (Miller & Gerard, 1979)

1- الاستثارة اللغوية للأطفال في بيئة أسرية غنية لغوياً، وحيث يلعب التواصل اللفظي وغير اللفظي دوراً فعالاً في تنمية المهارات اللغوية التي تعمل بدورها على تنمية الإبداع عند الأطفال.

ونشير في هذا الصد إلى ما نؤكده من أن اللغة لا تصنع نصاً مما يقوله الشخص، ولكنها تصنع نصاً من الشخص ذاته، وحيث تتأكد تلك العلاقة الوثيقة بين الصحة النفسية والصحة اللغوية للطفل (طلعت منصور، 2010).

2- لا توجد علاقة بين حجم الأسرة والترتيب الميلادي للأبناء وبين الإبداع عند الأبناء، وحيث تكون البيئة الأسرية السمحة هي العامل الفعال في هذا الشأن.

3- غالباً ما ينشأ الأطفال ذوو المستويات العالية من الإبداع في أسر يكون فيها الإخوة متقاربين من حيث السن.

4- يميل الأطفال المبدعون إلى أن يكون آباؤهم على درجة طيبة من التوافق النفسي، ويشعرون بالأمان، والثقة في أنفسهم وفي أبنائهم، ولا يعانون من الكف أو الإحباط، ويستطيعون التعامل مع ضغوط الحياة بأساليب توافقية.

5- التعامل الإيجابي مع الأبناء على أساس من الاحترام وإبداء الثقة والتأييد، وتوقعات الأداء الجيد منهم، مع منحهم مساحة مناسبة من الحرية والتعبير عن الذات.

6- تشجيع الاستقلالية والاعتماد على الذات، والاستكشاف والتجريب والاستطلاع، وسلوكات المخاطرة والمبادرة، وتحمل المسؤولية – وتلك سمات مشتركة مميزة لآباء وأمهات الأطفال المبدعين والموهوبين.

7- يبدي الآباء والأمهات مشاعر إيجابية من الحب والعطف، والاعتبار الإيجابي غير المشروط، والتعبير لهم عن تلك المشاعر دونما إفراط أو تفريط.

8- تتصف البيئة الأسرية للأطفال المبدعين بمناخ نفسي صحي قائم على الصراحة والاحترام، والفهم المتبادل، والحوار، وتبادل المساندة والتشجيع، وحيث تقل أو تختفي عوامل الكف والإحباط.

9- يحرص الآباء على تدريب أبنائهم على شحذ قوى الخيال والتخمين عندهم وذلك من خلال أنشطة اللعب والقراءة والأدب وممارسة الهويات وغير ذلك من أنشطة موجهة إلى تنمية الروح الإبداعية عند الأبناء.

10- تتصف ثقافة الأسرة بأنها ثقافة ذات توجه نحو الإثابة reward – oriented culture، حيث تولي الأسرة وزناً كبيراً لتقديم المعززات الإيجابية positive reinforcers للأبناء كالتشجيع والاستحسان والمكافأة، في حين أن الإبداع ينطفئ عند الأبناء في الأسر التي تتصف ثقافتها بأنها ذات توجه نحو العقاب punishement – oriented culture، وحيث لا يسمح حياة الأسرة باكتشاف إمكانات الإبداع عند الأطفال بل غالباً ما يفضي إلى ما يعرف بالفاقد في الابداع عند الأطفال.

تأثير التربية الأسرية على التعلم المعنوي والنضج الخلقي عند النشئ
(التحصين النفسي للنشء)

يتشرب الطفل النسق القيمي، الديني والروحي، في سياق عملية التنشئة الاجتماعية في الأسرة خاصة، حيث يتعلم الأبناء ما تقره ثقافة المجتمع – والأسرة حاملة تلك الثقافة، من معايير الصواب والخطأ، والخير والشر، والحقوق والواجبات، وأنماط السلوك الذي يُثاب أو يُعاقب، وأسلوب الحياة الذي يلقى استحساناً وتأييداً من جماعة الأسرة.

يتخذ تأثير التربية الأسرية على نمو الجانب الخلقي المعنوي كجانب رئيس (الجانب المثالي) من جوانب بناء الشخصية وحسن توظيف إمكاناتها عند النشئ، أربعة أشكال محددة، وهي:

1- تعمل أنماط السلوك في الأسرة كنموذج لسلوك الطفل الذي يقلد ما يلاحظه في البيئة الأسرية (التعلم بالنمذجة modeling learning).

2- أن الأسرة تعلم الطفل، باستخدام أساليب الاستحسان وعدم الاستحسان والثواب والعقاب، أن يسلك بطريقة مرغوبة اجتماعياً.

3- تستطيع الأسرة عن طريق تنظيم العقاب، لكي يأتى متفقاً مع الأفعال الخاطئة أو انتهاك معايير السلوك، أن تعلم الطفل التبصر بسلوكه وبتوقع نواتج معينة لهذا السلوك.

4- تستطيع الأسرة أن تفعل الكثير لاستثارة دافعية الطفل كي يسلك على نحو يلقى استحساناً اجتماعياً.

إن الأسرة بذلك هي في الأساس ناقل ثقافة المجتمع إلى النشئ؛ والمنزل هو مركز التدريب لاستيعاب القيم الخلقية في ثقافة المجتمع (Justin, 1950; Etaugh, 1980; APA, 2009, P. 306).

إن تمثل النشئ للقيم الأخلاقية هو موضوع للتعلم المعنوي moral learning، بقدر ما هو ناتج لهذا التعلم فيما يتمثل في تكوين الضمير (أو الأنا العليا أو الذات المثالية على نحو ما يطرح من مفاهيم متعددة في هذا الشأن). ويتحدد النضج الخلقي المعنوي للنشء في إطار ثلاثة معايير تحدد أن النشئ يتمتع بـــ "ضبط مُستَدخل internalized control قد استوعبه بواسطة ما يلقاه من إثابة وعقاب. فما خبره من أساليب ومعايير للضبط من الخارج، وخاصة من الوالدين، تتحول غالباً إلى ضبط من الداخل وإلى توجيه ذاتي؛ وهذه المعايير، التي صارت توجه سلوك النشئ، تمثل ركناً رئيساً من بنائه النفسي ومفهومه عن ذاته، هي كما يلي: (Hill, 1960)

1- مقاومة الغواية الإغراء resistance to temptation نحو مثير يجذبه أو يغويه، لأنه يعتبر خاطئاً أو غير أخلاقي من المنظور الثقافي، ذلك أن استجابة الإقدام تخضع للكف ولتوقع العقاب، لذا. تعتبر مقاومة الغواية والإغراء حالة خاصة مما يعرف بـــ "التعلم الإحجامي" avoidance learning. وفي حالة الإغراء تتوقف النقطة التي يصير عندها الشخص قلقاً بدرجة كبيرة على نفس النقطة التي عوقب عليها في الماضي. فإذا كان العقاب نادراً ما يوقع أو يوقع بعد إرجاء طويل، فقد لا تنمو عن النشئ القدرة على مقاومة الإغراء أو تنمو بدرجة فجة أو متزعزعة.

2- التهذيب الذاتي self – instruction القائم على الالتزام بقواعد السلوك السليم؛ فالطاعة القائمة على التهذيب الذاتي وفقاً للمبادئ الخلقية المعنوية يتعلمها الفرد

منذ طفولته بواسطة المبادئ والأحكام الخلقية التي يتلفظ بها الوالدان فى تفاعلهم معه وبوساطة ما يلاحظه من أنماط سلوكية والدية وفقاً لهذه المبادئ والأحكام؛ ويتأتى اكتساب هذا التوجيه الذاتي من خلال ما يعرف بالتعلم بالنمذجة modeling.

3- الدلالة الواضحة للشعور بالذنب، ويشير مصطلح "الذنب" إلى بعض المظاهر السلوكية المتعددة الدالة عليه، مثل الاستجابات الانفعالية (الحشوية) أو التلفظ بمشاعر الذنب أو إبداء عدم الرضا أو لوم الذات أو غير ذلك من أشكال التعبير عن مراجعة الذات أو التراجع عن الأفكار أو الأفعال أو الانفعالات التي يشعر حيالها بأن منافية للسلوك المرغوب. فتوقع النبذ أو العقاب الذي يتبع مخالفة القواعد الخلقية أو احتمالات مخالفتها هو ما يصفه الفرد ذاته كشعور بالذنب.

تكشف دراسات "باندورا" (Bandura & McDonald, 1963) عن وجود علاقة واضحة بين أساليب النظام في الأسرة التي تقوم على عدم الحكمة وعدم الاتساق، والتسيب في نظام الإثابة والعقاب، والتميع في التوجيه المتآني للأبناء في المواقف المختلفة، والتذبذب في تقديم نموذج والدي مثالي وغير ذلك – وبين تضاؤل القدرة على مقاومة الغواية والإغراء، وإضعاف قوة الأنا والأنا العليا، وتعلم أنماط سلوكية لا تلقى توجيهاً وضبطاً واعيين من الذات، لأنها لم تلق النموذج الذي تستوعبه ولم تتوفر المواقف المواتية لممارسته وتعزيزه كأسلوب حياة وكمكون رئيس من مكونات مفهوم الذات المثالية.

يناقش "كارل روجرز" (Rogers, 1985) **تأثير الأنماط المختلفة للتفاعلات بين الوالدين والأبناء على نمو مفهوم الذات لدى الأبناء**، مؤكداً على التعبير الإيجابي عن مشاعر الدفء والحب والتقبل والتشجيع للأبناء، وتأثيرها على مفهوم الذات لديهم. يبرز من نتائج دراسة (Piers, 1972) والتي قارن فيها بين مفهوم الذات لدى أطفال مضطربين نفسياً وآخرين عاديين، أن الأطفال العاديين يتصفون بمفهوم ذات إيجابي على العكس من الأطفال غير الأسوياء. ويتفق مفهوم الذات في كلتا الحالتين مع نوعية اتجاهات الوالدين وأساليبهما في معاملة الأبناء؛ فقد لقي الأطفال العاديون معاملة تقوم على نظرة إيجابية لهم من الوالدين عكس أطفال المجموعة الإكلينيكية. ويخلص الباحث إلى نتيجة عامة تؤكد

وجود علاقة قوية بين تقويم الوالدين للأبناء وتقويم الأبناء لذواتهم، وأنه يمكن التنبؤ لذلك بتأثير التفاعل بين الوالدين والأبناء على نمو مفهوم الذات لدى الأبناء في الاتجاه السوي أو المَرَضي.

وقد توصل (Coopersmith, 1967) إلى نتائج مماثلة من حيث أن الآباء والأمهات الذين يتصفون بمستويات عالية لتقدير الذات، كان أبناؤهم يتصفون كذلك بمستوى عال لتقدير الذات، حيث كان هؤلاء الأبناء يحظون بعلاقات اجتماعية وثيقة مع الوالدين، وبتشجيع الوالدين لهم وبدعم روح الاستقلالية عندهم، والسماح لهم بقدر معقول من الحرية الشخصية، إضافة إلى ما يتصفون به من الدفء والعطف، وفي نفس الوقت يقدمون لهم توجيهات واضحة ومحددة للسلوك.

التربية الأسرية تربية للمواطنة

(الأسرة حاضنة لقيم المواطنة وراعية لتربية المواطنة في النشئ)

قد نوجه لأنفسنا سؤالاً ربما لم نطرحه من قبل: "من أين يبدأ الوطن"؟ ولعل الإجابة التي تفرض نفسها في هذا السياق: أن الوطن يبدأ من الأسرة، وأن المواطنة تتولد من رحم الأسرة وتتشكل معالمها الأولية في بيئة الأسرة ولعلنا الآن، وأكثر من أي وقت مضى، نواجَهُ بالدور الحتمي للتربية الأسرية في تربية المواطنة في النشئ؛وهو دور لا تستطيع الأسرة أن تهمله أو تتخلى عنه أو تقف مكتوفة الأيدى إزاءه، أو تعتبر – عن نقص إدراك وبصيرة – أنه على هامش مهامها ووظائفها. وذلك دور من المسؤولية والالتزام ينبغي أن يكون في بؤرة وعي الأسرة وحسها الوطني ومركز اهتمامها والتزامها، وليتفاعل هذا الدور وظيفياً مع المجالات الأخرى من أدوار الأسرة وتأثيرها في بناء النشئ – بناءً متكاملاً ومتوازناً، وحيث لا نستطيع أن نفصل تربية المواطنة في النشئ عن الجوانب الأخرى من بناء الشخصية لدى هؤلاء الأفراد مواطني الحاضر والمستقبل.

إن البداية الحقيقية، الصادقة والعملية، لتربية المواطنة هي التربية الأسرية في إطار نسق المنظومة الأسرية كوحدة متماسكة وعلاقات تفاعلية إيجابية بين أعضاء الأسرة

ونماذج والدية فعالة وأسلوب حياة رشيد – وذلك هو المناخ النفسي الاجتماعي المواتي لبزوغ البراعم الأولى للمواطنة في البيئة الأسرية.

لهذا تتبدى الحاجة إلى تربية المواطنة كجانب رئيس من فعاليات التربية الأسرية والحياة الأسرية من أجل حماية النشئ من مخاطر ونُذُر الاغتراب مما تحمله في ثناياها طبيعة العصر، وتعزيز كفاياتهم الشخصية والاجتماعية تحصيناً لهم ضد عوامل وضغوط الغربة عن الذات والآخرين والمجتمع.

فالتربية الأسرية للمواطنة ينبغي أن تنهض على كامل الوعي بالواقع الاجتماعي الثقافي المعاصر، والمعرفة بالأمور السياسية والمشاركة في أنشطة تجسد هذه المعرفة في أعمال ومهام وأدوار، اعتباراً لما تشير إليه نتائج بعض البحوث التي أجريت على أفراد من سن 12–19 سنة من أن هؤلاء النشئ ينقصهم الوعي المعرفي بالمواطنة والسياسة (Wyness, 2006, pp. 220-221).

وينبغي لذلك إتاحة فرص متنوعة ومناسبة أمام النشئ للمشاركة في مناقشات وحوارات حول القضايا المدنية والسياسية الأمر الذى يمكن أن يخلق ما يسمى "البيئة المجتمعية المساندة" Supportive communal environment التي توفر أساساً حقيقياً لنمو الوعي بالمواطنة وتنمية سلوكات وأدوار المشاركة الاجتماعية وممارسة السياسة والديمقراطية لدى النشئ وبالأساليب المتناسبة مع أعمارهم (Hahn, 1999, p. 237).

إن قيم حقوق الإنسان – معرفة ووجداناً وسلوكاً – تتفاعل هكذا وبالضرورة مع النسق القيمي والثراء الروحي للأسرة، وتتجسد في شعور أعضاء الأسرة بالانتماء والولاء للوطن، والتوحد معه تراباً وتراثاً وقيادة شرعية، واحترام حقوق الإنسان، والالتزام بالواجبات والمسؤوليات، وتعزيز مبادئ الديمقراطية والشورى، وأخلاقيات الحوار وتبادل الفكر والرأي، والمشاركة الاجتماعية وروح التطوع والمبادرة في خدمة المجتمع، وتقدير التنوع في المجتمع، والعدالة وعدم التفرقة لاعتبارات الدين أو المذهب أو العرق أو الطبقة الاجتماعية أو الجنس أو الجنسية.

ويتأكد في هذا الشأن أن **توجهات تربية المواطنة لدى النشئ في الأسرة ترتكز على كفالة حقوق الطفل في الأسرة وانعكاساً لتوجهات حقوق الإنسان في المجتمع المعاصر.**

وإن الأطفال لمرآة صادقة لصدق الأسرة في أداء دورها في غرس مفاهيم وقيم المواطنة لديهم؛ فهم يتصفون بالقابلية والمرونة للتكوين والتشكيل، ومن ثم فإن مفاهيم وسلوكات المواطنة تتشكل وبمرونة تفاعلاً مع كل بناء الشخصية. لذا يعكس النشئ في شفافية تأثير الأسرة على تربية المواطنة لديهم، فيما يتضح في أنماط سلوكية متباينة بتباين فاعلية دور الأسرة في هذا الشأن. فعلى سبيل المثال، ما قد يبديه بعض الأطفال في طفولتهم، وغالباً كذلك في رشدهم، من اتجاهات اجتماعية تقوم على التحامل أو التعصب، والاستعلاء والاستعداء وغير ذلك من أشكال اتجاهات التفرقة أو التمييز، هو محصلة ثقافة الأسرة والاتجاهات الاجتماعية عند الوالدين، وحيث يكون الأطفال بدورهم حملة لتلك الثقافة كأسلوب حياة في الأسرة وخير تعبير عنها. وتلك حقائق علمية أكدتها نتائج بحوث كثيرة في مجال علم النفس الاجتماعي والسياسي عن تكوين الاتجاهات الاجتماعية، وتغييرها أو تعديلها بالاستراتيجيات الإرشادية والتربوية والثقافية المناسبة.

ألا يدعونا ذلك إلى التفكير والتدبير في أن تكون قضايا المواطنة، وعلى خلفية حقوق الإنسان، من الفاعليات الرئيسة للتربية الوالدية من خلال استراتيجيات وبرامج تدريبية موجهة للوالدين لهذا الغرض كي يكتسبا بشأنها معرفة ومهارة في إعداد النشئ لمواطنة صالحة، لا أن تترك هذه الجبهة الحيوية من الأمن القومي والسلام الاجتماعي للصدفة أو للنوايا الطيبة.

الوجه الآخر
لتأثير الأسرة على النشئ
(الصورة بالنقيض)

عند هذا المنعطف، قد يستوقفنا تساؤل: وماذا لو غابت أو انحرفت أو اضطربت التربية الأسرية؟ وما تأثير غياب الدور الأسري، المتوقع والمنشود، على النشئ؟

لعلنا لسنا في هذا المقام بسبيل الخوض في هذا الميدان، ولكننا نشير في عجالة، وفي قلة من غير إقلال، إلى مرجعة علمية مهنية "للرابطة الأمريكية للطب النفسي"، وهو "كتاب الحالات" للدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية DSM-IV-TR Case Book والذي أصدره عام 2007 "مركز الاستشارات العائلية بالدوحة" بالشراكة مع الرابطة الأمريكية للطب النفسي بواشنطن" (ترجمة طلعت منصور)، وحيث يتضمن الكتاب عرضاً لدراسة حالات نموذجية (ما يقرب من ثلاثمائة حالة) من الاضطرابات النفسية والأسباب والعوامل المرتبطة بها ومعالمها وأعراضها التشخيصية، وحيث يبرز في تحليل ودراسة وتشخيص هذه الاضطرابات أن العامل المشترك والحاسم في كل أو معظم الاضطرابات النفسية والانحرافات السلوكية وكل ألوان الشقاء الإنساني هو الأسرة في غيبتها أو انحرافها عن أداء دورها المسؤول والواعي في تربية النشئ، فيما يشيع من أشكال سوء التوافق الزواجي والتصدع الأسري والعنف الأسري والعنف ضد المرأة والأطفال، والإدمان، واضطرابات الشخصية والانحرافات الأخلاقية وغير ذلك من آفات تعصف بالبناء الأسري وتعطل وظيفية الأسرة أو تنحرف بها.

خاتمـــــة

إن الأسرة العربية وعلى قدر طموحاتها تكون تحدياتها في تربية النشئ وإعدادهم لحياة إيجابية، منتجة وفعالة، ولمواطنة صالحة، وليكونوا منظومة مفتوحة قابلة وباقتـــدار للتعلم والتثقيف والارتقاء، ولاستيعاب ثقافة العصر وحسن التوجه فيها بالوعى والتقـــويم والانتقاء وعلى نحو يتفاعل إيجابياً ووظيفياً مع هويتنا الثقافية وشخصيتنا الوطنية.

عندئذ نستطيع أن نتناول الأسرة والتربية الأسرية من منظور أعمق وأوسع، فهي ليست مجرد أساليب للتنشئة والتعامل مع الأبناء قوامها الحب والدفء، والفهـــم والتقبـــل والاحترام، والمساندة والتشجيع، والتواصل الفعال وغير ذلك من مقومات التربية السليمة، بل هي أيضاً ما وراء تلك المقومات من مصادر وقوي تكفل ضمانات فاعليـــة وإيجابيـــة تأثير الأسرة في تربية النشئ؛ وهو تأثير قد يكون أبدياً، فغالباً ما يمتد من جيل إلى جيل، وحيث تأخذ التربية الأسرية مساراً مميزاً ومتنامياً وهو "دورة حياة الأسرة" وامتداد تأثيرها عبر الأجيال.

وحسبنا أن ميراثنا الروحي الذي تكتنزه أديانا السماوية، إنما تتفرد بـــه ثقافتنـــا ويسمو به أسلوب حياتنا؛ وهو لذلك خير مصدرية ومرجعية للتربية الأسرية الأنموذجيـــة في تأثيرها المتوقع والمنشود على ناشئتنا – حاضراً ومستقبلاً.

المراجع

- الرابطة الأمريكية للطب النفسي (2007). **كتاب الحالات للدليل التشخيصي والإحصائي الرابع المعدل للاضطرابات النفسية**، ترجمة طلعت منصور. أصدره "مركز الاستشارات العائلية" بالدوحة، بالشراكة مع "الرابطة الأمريكية للطب النفسي بواشنطن. قطر، الدوحة: مركز الاستشارات العائلية.
- فرانكل، ف. (1982). **الإنسان يبحث عن المعنى**، ترجمة طلعت منصور. الكويت: دار القلم.
- طلعت منصور (1988). **دور الأسرة في رعاية الطفل من الميلاد حتى السادسة: إعداد معايير نمو الطفل المصري**. (رئيس فريق المشروع): أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا – مجلس بحوث العلوم الاجتماعية والسكان، بالاشتراك مع جامعة عين شمس (يناير 1984 – مايو 1988).
- طلعت منصور (1982). الشخصية السوية. **مجلة عالم الفكر**، مجلد 13، عدد 2.
- طلعت منصور (2010). الصحة النفسية والصحة اللغوية للطفل العربي. في "**استراتيجية تنمية لغة الطفل العربي**"، إعداد المجلس العربي للطفولة والتنمية بالاشتراك مع جامعة الدول العربية، وقد أُطلقت الاستراتيجية من دمشق (2008)، وصدرت طبعتها بالقاهرة(2010).
- عبد العزيز القوصي (1981). **التعلم وتحديات المستقبل – تقرير لنادي روما الدولي**، القاهرة: المكتب المصري الحديث.
- American Psychological Association (2009). **APA concise dictionary of psychology**. Washington, DC: American Psychlogical Association.
- Bandura, A., & McDonald, F.J. (1963). The influence of social reinforcement and the behavior of models in shaping children's

moral judgements. **Journal of Abnormal and Social Psychology**, 67, 274-282.

- Becker, W.C. (1964). Consequences of different kinds of parental discipline. In M.L. Hoffman & L.W. Hoffman (Eds.), **Review of child development research**, Vol. 1, pp. 169-208. New York. Rusell Sage Foundation.
- Etaugh, (1980). Effects of nonmaternal care on children. **American Psychologist**, 35(4), 309-319.
- Coopersmith, S. (1967). **Antecedents of self-esteem**. San Francisco: Freeman.
- Brown, S.L. (1978). Functions, tasks and stresses of parenting : Implications for guidance. In L.E. Arnold (Ed.), **Helping parents help their children**, pp. 22-34. New York: Brunner/ Mazel.
- Hahn, C. (1999). Citizenship education: An empirical study of policy, practice and outcomes. **Oxford Review of Edcuation**, 25, pp. 231-250.
- Harskamp, A. (1996). Working together to protect from abuse and neglect. In A. Sigston, et al. (Eds), **Psychology in practice**. London: David Fulton Pub.
- Hill, W.F. (1960). Learning theory and the acquisition of values. **Psychological Review**, 67, 317-331.
- Jenkins, R.L. (1968). The varieties of children's behavioral problems and family dynamics. **American Journal of Psychiatry**, 124(10), 1440-1445.

- Justin, F. (1950) Home training in human values. **Journal of Home Economics**, 47, 722.
- Martin, A.R. (1993). A study of parental attitudes and their influence upon personality development. **Education**, 63, 596-608.
- Miller, B., & Gerard, D. (1979). Family influences on the development of creativity in children: An integrative review. **The Family Coordinator**, 21(1), 61-69.
- Piers, E.V. (1972). Parent prediction of children's self-concept. **Journal of Consulting and Clinical Psychology**, 38, 428-433.
- Rogers, C.R. (1985. Toward a more human science of the person. **Journal of Humanistic Psychology**, 25, 7-24.
- Wyness, M. (2006). **Childhood and society: An introduction to the sociology of childhood**. New York: John Wiley & Sons.